حسين الواد

لا رهبة من الماضي

تقديم

محمّد الخبو

دار الجنوب

© دار الجنوب للنشر، تونس، 2019
جميع الحقوق محفوظة
لوحة الغلاف: أيمن بن عمر
ر د م ك 5 - 142 -01 - 9938 - 978 :ISBN
contact@sudeditions.com

«لا رهبةَ من الماضي عندَ الـمَشيب أو خوف».

عجبتُ من أن تحضرني هذه العبارة في هذا الظرف بالذات. منذ ساعات وأنا أجاهد لتبيّن الطريق وهي تذهب عن ذهني وتعود. يتكوّر في حلقي الشجى فتغيم عيناي. أشدّ عليهما بالتفتيح والإغلاق فتعتلج في صدري الزفرات. لا أذكر أنّني تناقشتُ، يوما، مع سالم في الماضي إن كان يمكن الإفلات منه؛ لكنني أكاد، الآن، أسمع صوته وهو يقول بنبرة جازمة:

- «يفلتُ الماضي من المضيّ ليكيّف الحاضر ويتحكّم في المستقبل. لكنه يفلت منه محوّرا ومحرّفا. الماضي يا صاحبي معانٍ أصداء تُصنع كل يوم وتُسند إلى وقائع انقضت وطواها النسيانُ. تمتلئ تلك المعاني الأصداء المنقطعة عن وقائعها، يوما بعد يوم، بالأساطير والخرافات. ركام هائل من الكلام المبتور عن مراجعه. موروثات جماعية وفردانية تنتظم في أنساق قاهرة نسمّيها «ثقافة» يتحكم بها الأموات في الأحياء. من الذي يمكن له أن يفلت من ماضيه، أعني من ثقافته؟ بإمكان البعض أن يخترقوا الفقر إلى الثروة والوضاعة إلى الوجاهة، بإمكانهم، اليوم، أن يغيّروا من السّحنة والملامح بل الجنس. أما أن يفلتوا من قبضة الثقافة فـ... كيف يقال في ثقافة الصادق...حديث خرافة يا أمّ عمرو».

أكاد أسمع الصادق يردّ عليه بحماسه المعهود قائلا:

- «نأخذ من الماضي الدرر. يأخذ ذوو الألباب منه العبر».

أكاد أسمع هذا كله محتارا في العلاقة بينهما. يختلفان أكثر ممّا يتّفقان فما الذي يجمع بينهما؟

على لوك مثل هذه الخواطر وصلتُ إلى بيت الصادق ببلدته بعد مواراة صديقنا سالم بأسبوع. لم أبرمج زيارته ولم أعلمه بها. من اللحظة التي فرغنا فيها من الدفن لم يجد كلانا ما يقوله لصاحبه. انصرفنا حَرِجَيْن من حَرَجِنا. لم يخفّف من حزني على فراق صاحبنا أن الفراق بيننا نحن الثلاثة قد حصل منذ أعوام. من الليلة التي خرقنا فيها اتفاقاً دأبنا على احترامه، لم يجمعنا لقاء آخر. مرّت سنون، وحصلت تحوّلات في البلاد كثيرة، ولم نلتق مثلما اعتدنا أن نلتقي. انتشينا مع مَن انتشى، ويئسنا مع مَن يئس، وتواصل أحدنا بالآخر هاتفيا؛ لكن لم يجمع بين ثلاثتنا لقاء.

عن الأحداث الأخيرة هاتفني سالم قائلا:

- « جاءت، يا حمده، في آخر العمر. تراهم، دوننا، يقدرون على شيء. آه لو أنها كانت قد أتتنا في شرخ الشباب؟»

فهمتُ أنه يشير إلى السنوات الكثيرة الماضية. أجبته قائلا:

- «أن تأتي أفضل، في جميع الحالات من ألاّ تأتيَ أبدا».

أطلق طنّة بفمه. ضحك وقطع المكالمة.

أصبح أستاذا جامعيا كبيرا في الآداب الفرنسية لكنه لم يكتب إلا القليل. قال لي مرّة عندما استغربت قلّة إنتاجه:

- لا أظنهم يأبهون لما يكتبه أجنبيّ من بلد متخلف عن ثقافتهم. اكتب لنا عن ثقافتنا.

- ثقافتنا نغم واحد من التأييد والمديح نردّده منذ قرون. لن يسمعك إن خرجت عنه أحد.

- سيأتي الذين يسمعون.

هزّ كتفيه استهانة وانصرف. لم أعرف له التزاما بقضية من القضايا الكثيرة المطروحة على أمثاله من المثقفين. لم ينخرط في حزب من الأحزاب أو تنظيم من التنظيمات. ظل متمسّكا بما سمّاه يوما «حريّة الفكر والضمير».

لم أفهم قصده فسألته عنه فقال:

- العالم الذي يضع علمه في خدمة مذهب من المذاهب أو سياسة من السياسات يلغي ذاته. يخرج من الحرية إلى الاستعباد.

ناقشته ملوّحا بمفهوم المثقّف العضوي فقال:

- «لصاحبه فضل الاعتراف بما لا يعترف به الآخرون. لكن الانتماء الفكري خيانة للفكر.

قرّبه، في بداية التألق ببحوث ومقالات لقيت في العالم صدى، وزيرٌ كانت له به معرفة. طلب منه برنامجا للنهوض بتعليم بدأ يأخذ فيه التآكل والتصدّع. سوّف وتملّص، لكنّ الوزير أصرّ. اشتغل على البرنامج بضعة أشهر. أوصله إليه. قال له في تلخيصه:

- «في الإنسانيات كما في العلوم الصحيحة والتقنية، لا مفرّ من الأخذ عن الآخر المتفوّق. اقتراحي، حتى نتجنّب التمزّق بين ماضينا وحاضرنا ونوفّر للأجيال القادمة حظوظ المشاركة في صنع الحاضر والمستقبل، أن تعمّم العربية على جميع الشعب والتخصّصات. في الإنسانيات يحصّل الطلبة اختصاصهم متينا باللغات الأجنبية إلى جانب التضلّع بالعربية. في العلوم الصحيحة والتقنيات يحصّل الطلبة تكوينهم المختص ويتقنون العربية أيضا. طلّاب العربية يحصلون على تكوين متين في اللغات الحيّة إلى جانب اختصاصهم. بهذا تنتقل المعرفة عند الإنتاج إلى اللسان العربيّ، تصبح جزءا مشاركا في المشهد العالمي. تشارك فيها بحاضرها وماضيها. رجاءً، لا تعهدوا بتعليم اللغات إلى غير المتمكنين من تدريسها».

شكره الوزير. وعده بإيلاء الخطة المقترحة اهتماما كبيرا. أبلغه بعد أكثر من شهرين أنّ ما عرضه يمتنع، جملة وتفصيلا، عن التحقيق. قال له:

– يلزمه مال كثير. الحكومة توفر بالكاد مقاعد للحشود الزاحفة على التعليم العالي. اعترض بعض الخبراء بأن المعرفة أصبحت موقعية. لم تعد بابن القرن الحادي والعشرين حاجة إلى حشو الأدمغة بالزوائد.

– الاعتراض وجيه في البلدان المتقدمة. بلداننا الممزقة بين اغترابين، اغتراب في ماض من وهم، وآخر في حاضر معادٍ لا تفهم منه شيئا، تحتاج إلى وصفة خاصة. الذي يؤسس مشروعا يقترض يا سيدي الوزير. وهذا مشروع وطني. أنتم تقترضون لاشتراء الكماليات. اقترضوا لما يدوم، لما يخرج بالبلاد من التأخّر التاريخيّ».

غرق سالم، بعد ذلك، في ما يشبه اليأس. اتّجه بفكرته إلى نشطين من الزملاء في الصفوف النقابية والحزبية والمعارضة. لم ينصت إليه أحد. التراثيون استوحشوا من تمغربه والحداثيون استوحشوا من تمعربه. نفض يديه من كلّ شيء مهمّ. استمرّ في التدريس. لكن أصبح يقوم به آليا. شاهد الجامعة تتهاوى، بعد انهيار التعليمين الثانوى والابتدائي، فلم يعد يدخل في نقاش مع أحد. لم يعد يتبادل التحية إلا مع قلة قليلة من الزملاء. كان دائما يقول:

– «على من لا يستثمر في وسائل الكسب أن يستعدّ لاستقبال الفقر».

اهتزّ عندما حصل للبلاد ما حصل. لم يدم اهتزازه سوى بضعة أسابيع. شعر، عندما شاهد ما شاهد، بأن الأمر برمّته مسرحية بلا نصّ. أدركت البذاءة أبعد الغايات. اندهش قائلا:

– من أيّ الحجور خرج هؤلاء المتوحّشون؟ أيدعو عاقل، في هذا الزمان، إلى التوحّش؟

ما كاد يبلغ الستّين حتى خرج إلى التقاعد. نظّم حياته على إيقاع واحد يتكرر كل يوم: ساعات لقراءة عيون الآداب القديمة؛ ساعات في العشية للتسلّي بتصفّح مجلّدات في التاريخ العربي إلى ما يعرف بعصر النهضة يتناول فيها عددا معيّنا من الكؤوس لا يتجاوزها إلا إذا هاجت به المواجع؛ في الليل يتصفّح مجلّات متنوّعة باللسان الفرنسي ويخلد إلى النوم. هذا ما عرفتُه منه مباشرة قبل أن ينفرط عقدنا وبالمهاتفة بعده. لم يبلغني عنه منه ومن غيره غير هذا.

ظلّ الصادق يُستبعَد بوزارة الداخلية ويَستبعِد. كلما وفد عليها أشخاص جدد واستغرب المنطق الذي يسيّرون به أمن العباد والبلاد، ازداد الحرص على استبعاده. انتهت به الاستبعادات إلى مكتب يجلس فيه دون شغل. حتى تكوين الإطارات وإعادة تأهيلهم قد انتُزعت منه. خرج مسرورا بالتقاعد آسفا على جميع ما بذل فيه مجهودا كبيرا. عندما اضطربت البلاد واتسع الفتقُ على الرّتق، هاجت عليه المواجع. كاد يهبّ في بداية الأحداث إلى الوزارة عارضا خبراته لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. هاتف بعض المعارف القدامى قائلا: «التدمير بمعاول مرتزقة قرّرتها قوى من الخارج لا يعطي سوى الخراب». لم يسمع منه أحد. فهم أن العقد قد انفرط. أنسكه عن الهبوب أنه كان، من التاريخ الذي انقلب فيه الوزير الأول على رئيسه، قد حذّر ممّا توقّع أن يحصل دون أن يصغي إليه أحد. كان في موقع يمكّن من الإشراف على المشهد في كلّيّته. عرض ملفّا ضمّنه كثيرا من الاقتراحات. سلّمه إلى الرئيس المنقلب على الدولة انقلابَه الناعمَ يدا بيد. كانت قد جمعت بينهما بالوزارة جلسات عديدة. شاهد التوجّهات تندفع نحو جميع ما كان قد حذّر منه وبدأ يلحقه الاستبعاد. عندما بدأت سحب الوقائع الأخيرة في الانقشاع وجنحت العاصفة إلى الهدوء، وجد نفسه متّهما بالإفراط في خدمة النظام الفاسد. لم تكن بيني وبينه مكالمات هاتفيّة. انغرس فيه حذر من هذه الأجهزة. التقينا مرّة في الطريق

العام. أخبرني بهذا كله وختمه بأن بطاقات جلب قد صدرت فيه. استغربتُ. قال:

– لن أذهب. نهضتُ بالعمل الذي تكفّلتُ بالقيام به فقط.

– لكنهم سيصلون إليك.

– ما أظنهم حرصين على إيقافي. يعرفون أني أقيم ببلدتي في منزل الوالد. غضّوا الطرف. الذين زاملت أو اشتغلوا تحت إمرتي يعرفون حقّ المعرفة أيّ المواقف وقفتُ وأيّ الأعمال أتيتُ. لا يمكن أن نضع الجميع في كيس واحد ونرمي به في البحر.

لم أره بعد ذلك اللقاء إلا في جنازة سالم.

ما إن رجعتُ من فرنسا وكوّنت شركتي، بعد مقدم دولة العهد الجديد ببضع سنوات، حتى عضضت على إصبعي ندما. النصوص القانونية في بلادنا شيء وتطبيقها شيء آخر. نهم متعاظم جديد استبدّ بكثير من النفوس. كدت أغلق الشركة مرّات وأعود من حيث جئتُ. وجدتُ إغلاقَها يكلّفني أكثر مما كلّفني الإنشاء. كل هذا خارج القوانين المسطّرة. سرتُ الهوينى، كما يقال، في ظرف غير بالغ الصعوبة وبالغ الفساد. كثيرا ما كنت ألجأ إلى علاقاتي بالخارج لتسليك بعض الملفات.

عندما انهار النظام، عرتني بهتة. لم أجد لانهياره تفسيرا مقنعا. كمنتُ متابعا التحوّلات. ما أسرع ما شاهدتها تقع في أيد غريبة، أيد فاقدة لجميع أنواع الكفاءات. انكشف المستور على أقبح ما يتصوّر متشائم. سبحان الله، الشعوب تنزع إلى الأفضل فما لنا نتسابق إلى الرداءة والتخريب. حتى المشهد أصبح ببلادنا الجميلة مسرفا في البذاءة والقبح.

بعد أيّام، من دفن سالم، أتاني ابن حارس العمارة التي كان الصادق يحتفظ بغرفة فيها تحت السلالم. حلّ هذا الابن مكان والده

بعد وفاته. عرفناه جميعا منذ كان صبيا. طلب مقابلتي وألحّ. سلّمني، يدا بيد، ظرفا سميكا وانصرف. فتحت الظرف فإذا فيه كراس من النوع الذي كان رائج الاستعمال في المدارس الابتدائية منذ زمن بعيد. قرأته مرّات وهببتُ إلى الصادق.

بدا لي، عندما فتح الباب، أكثر تماسكا ممّا خُيِّل إليّ عندما لاقيته في المقبرة. قدّم لي قهوة قام بإعدادها بنفسه. قلت وهو يعدّها:

– كدتُ أخطئ الدار. تغيّر الشارع كثيرا. آخر مرّة زرتك فيها كانت سنة ترشّحنا لشهادة الباكالوريا.

لم يعلّق. سألني إن كنتُ سأبقى للغداء. بدأ الحديث بيننا يتّجه إلى سالم. قلت له:

– تذكّرتُ، وأنا في الطريق، بعضا من نقاشاتنا فاشتدّ بي الغمّ. آه على تلك الأيام، بحلوها وبمرّها. وجدتني، في بعض الأحيان، لا أتبيّن جيّدا ما أمامي. آآآآه. تفجّعتُ عليه. كان لي الأخ الذي لم تلده أمّي.

– بالنسبة إليّ كان أكثر من أخ. أحدث موته انهيارا كاملا في كياني.

خيّم علينا صمت. قال الصادق بنبرة هادئة:

– لم أهتد إلى مغزى أن يوصي بأن يدفن في مقبرة الدوّار.

– بدا لي أنه يريد أن يمحوَ كلّ شيء. نوع من الرفض لأن يكون قد كان، أو لأن تكون، في يوم من الأيام، قد جرت به في الدوار قدمان حافيتان أو تقلبت به تصاريف الزمان، في معظم الأحيان، على ما لا يحبّ.

أطرق الصادق. قلت:

– فاجأني موته. لم أسمع بمرضه.

– صادفتُ ابن أخته الصغرى في ورشة والده النجّار. سألته عن

خاله فقال إنه قد مرض قليلا وتحسّنت صحته. هممتُ بزيارته وصرفتني السخافات التي تعرف.

– سمعت في المقبرة أن الموت بغته في إحدى الليالي. طلب الإسعاف فمات قبل وصوله.

خيّم علينا الصمت من جديد. رفع الصادق بعد برهة رأسه وقال:

– كان شقيقَ روح.

– لو كان بيننا لنبزك بتعليق لا يخطر على بال.

– نختلف ونتنابز مثلما يختلف الواحد مع نفسه وينبزها. من اليوم الذي تعارفنا فيه ونحن كجناحي طائر. هل حدّثك عن صداقتنا كيف نشأت؟

نفيتُ بحركة من رأسي. سكتَ مديدة واندفع قائلا بنبرة هادئة جدّا:

«ما بين الرابعة والسادسة عشرة كنّا في الكوليج بمدينتنا. أحدث هذا الكوليج لمنافسة التعليم الديني. هو في الثانية ث1، وأنا في الثانية ث2. كان الأوّل في فصله، وكنت الأوّل في فصلي. لم نلتق إلا قليلا، لكنني حملتُ له كرها ومقتا. غاظني أن يتفوّق أعرابيّ معدم من دوّار «البكاكش» على المرفّهين من أبناء المدينة.

«لعلك تذكر أن الوزارة قرّرت، في تلك السنة، تعميم الاختلاط بالمدارس. نقلتْ إلى السنة الثانية أربع عشرة فتاة، في كل قسم سبعا، وحشدا كبيرا منهنّ إلى السنة الأولى. أحدث وفود البنات على كوليجنا هزّة كبيرة فيه وفي المدينة. ازددت كرها له عندما شاهدتُ البنات يقتربن منه ويتحدّث بعفوية معهنّ. معظمنا كان ينظر إلى زميلاتنا من بعيد.

«في ذلك العام قدم إلى الكوليج أستاذان جديدان. أحدهما فرنسيّ والآخر تونسيّ زاول تعليمه في القاهرة أو دمشق أو بيروت. كانا في

نفس العمر تقريبا. الفرنسيّ متزوّج بفرنسيّة تدرّس الرياضيات في مدينة قريبة. التونسيّ على أبواب الزواج من قريبة له. أقبل الفرنسيّ على تنشيط الحياة الثقافية بالكوليج. شرع في تكوين النوادي: ناد للمسرح وناد للموسيقى وآخر للمطالعة. دفعت الحميّة الأستاذ التونسيّ إلى تكوين نواد أخرى: ناد للشطرنج وآخر للإلقاء وآخر لكرة الطاولة. دبّ في الكوليج والمدينة نشاط جديد. تردّد على هذه النوادي كثير من التلاميذ. أصبح يزورها بعض المعلّمين.

«استهوتني لعبة الشطرنج فولعتُ بها. ولع بها سالم أيضا. سمعتُ أنه اكتسب فيها مهارة فازددتُ له كرهاً. أنّى لسارح غَنَم أن يتقن لعبة الملوك والأمراء؟ كنت مرفّها ماديّا وكان مُعدما تماما. يأتي من دوّارهم على درّاجة خلقة ويظلّ ما بين منتصف النهار والثانية بعد الزوال أمام المعهد. قال الذين يعرفونه إنه يتناول غداءه أمام مبنى البوسطة في ظل شجرة كبيرة: حكّة من البسيسة أو كسرة من خبز الشعير. أحيانا يأتي ببيضة وزيتونات. في منتصف تلك السنة، نظّم الأستاذ التونسيّ مسابقة في لعبة الشطرنج خاصّة بتلاميذ الكوليج. أسفرتِ التصفيات عن أن أواجهه في مقابلة نهائيّة. تمنّيتُ لو واجهتُ آخر غيره؛ فهو ليس من مقامي. أقيم النهائيّ بيني وبينه عشيّة سبت. حضر الأساتذة والقيّمون وكثير من التلاميذ والتلميذات وبعض الأولياء. الفائز يغنم شطرنجا في علبة ملفوفة لفّا أنيقا.

«ما إن أجلسنا القيّمُ المشرف على المقابلة وشرع في متابعة تحريكنا القطع ونقلها على لوح عموديّ كبير يشاهده الجميع حتى استهنتُ به. قد تمرّنتُ على أسرار هذه اللعبة بإعادة مقابلات عالميّة دارت بين أساطين الحذّاق؛ فأين لسارح أغنام بدقيق لطائفها؟ كنت واثقا من أني منتصر عليه. قلت في نفسي مزهوّا:

– «سأذيقه مرارة هزيمة لم يعرف لها طعما».

لم يزعجني إلا أن أواجه هذا التافهَ الزريَّ الذي يجلس أمامي معتقدا أن مقامه من مقامي. جلس المتفرّجون فريقين: أنصاري كثيرون وأنصاره قليلون. أهل مدينتنا يحتقرون سكّان البوادي.

«لم أفق من سروري الواثق بأني هازمه إلا عندما لاحظت أنه قد احتلّ أحصنَ المواقع وبدأ يضيّق على الشاه الخناق. هالني الأمر. ارتبكتُ. كبر بي هلعي. غابت عنّي معالم الخطّة التي أعددتها له. تكدّر بصري. حمي صدغاي. لبّني عرق. تصوّرتُ الضربة القاضية آتية. انكشف الشاه. لم تبق إلا ثلاث أو أربع حركات ويموتَ بين رخّيْه وفيليْه وبيادقه. هتف أنصاره:

- «انتهت المقابلة. هيّا دمّره. أقض عليه. سدّد له ضربة الرحمة».

لم يحرّك سالم ساكنا. كان ينظر إلى الرقعة كالمستغرق في تفكير عميق. انتظرت أن يحرّك الفرز ثم الرخ ثم الفرس وأن يقول: «كش» ويردفها بـ«كش مات»، ويرميني بنظرة الغالب إلى المغلوب. لكنه لم يفعل.

«نهض فجأة واقفا. فهرع إلينا القيّم المتابع لحركاتنا مستفسرا. قال سالم:

- «أوقفُ المقابلة».

هتف القيم مستغربا:

- «ما لك؟ لا حق لك في إيقافها. هل تعلن هزيمتك؟»

قال سالم وهو يفرك راحتيه بعصبيّة:

- «لم أنهزم. لا أريد المواصلة.

- في هذه الحالة، سنعلن أنك انهزمت».

همهم سالم:

- «هذا يخصّكم. لكنني لم أنهزم».

انتهزتُ الفرصة فأفسدت بيدي نظام القطع على الرقعة. نهضت واقفا وقلت:

- «أنا أيضا لا أرغب في المواصلة. لم أنهزم ولم أنتصر».

تشاور القيّم مع الأستاذ التونسي المشرف على نادي الشطرنج. اتّجه سالم إلى باب المدرسة. عجّلت أنا بالانصراف وصوت القيّم يتناهى إليّ بانتقال الحفل إلى توزيع الجوائز على المتفوّقين في النشاط الثقافي.

«ظللت حريصا على تجنّب سالم كلما صادفته في ساحة الكوليج أو أمامه. كان مقرّبا من الأستاذ الفرنسي. كنت مقرّبا من الأستاذ التونسي.

«كلما تذكرت واقعة المباراة اشتدّ استغرابي من تصرّفه. ما الذي دفعه إلى أن يمتنع عن قطف نصر كان في المتناول؟ لو كنت أنا المنتصر كنتُ هتفتُ به شامتا: «هذه ليست من مقامك».

وجدنا نفسينا وجها لوجه في مكتبة الكوليج. حيّيته فردّ التحيّة. خرجتُ قبله وتمهّلت في الانصراف حتى لحق بي. قلت له:

- لماذا أوقفت المقابلة؟

- لم تكن في يومك. ارتكبتَ أخطاء لا يرتكبها المبتدئون.

بعد أسبوع أصبحنا صديقين. تمتّنت مع الأيام صحبتُنا حتى أصبح، بالنسبة إليّ، الخلّ الودود».

سكتنا مُدَيْدة. ازداد حزني على فقدانه اشتدادا. واصل الصادق قائلا:

- الله يغفر ويسامح. آذيته قبل هذه الواقعة كثيرا. طيش صبيان يجرجرون ثقافة تعيسة. الذين يصلون إلى الكوليج من المدارس الريفية لا شأن لهم. كانوا دائما في المؤخرة. لم يواصل منهم إلا قليلون. كنّا نتمسخر عليهم. اخترق سالم القاعدة. المدرسة الابتدائية

التي جاء منها بها ثلاث قاعات. كيف قدر على أن يكون الأول في قسمه بالكوليج. كنا نتندر، بمحضره، بمعلمين يغرّقون، في الأرياف شعور التلاميذ بالبترول ليقضوا على ما بها من قمل. كان يسمع ويسكت وكان سكوته يغيضنا عليه.

- وقف معنا في جميع الشدائد. عندما احتاج إلى من يقف له لم يجد أحدا.

- قدر المتميّزين الوحدة والعزلة. كان مزيجا خاصّا من العقلانية والرومانسية والتمرّد النيتشوي. لم تمنع خلافاتنا أن نكون صديقين. اقترحت عليه مرّة أن نتآخى. رفض متعلّلا بأن التاريخ لا يعود إلى الوراء إلا بالمهتزّين في أجسامهم.

- لم ينفعه التميّز ولم تنتفع به البلاد».

تشاغل الصادق بتحريك قهوته وقال:

- إيه، هزّني أن يموت قبلي.

واسترجع مرّات. أضاف بعد قليل:

- «صدق، والله، شيخ المعرة في قوله:

يدفّن بعضُنا بعضاً ويمشي   أواخرُنا على هام الأوالي

- لو كان معنا لقال معتذرا لأبي العلاء:

يدمّر بعضنا بعضا ويمشي   أراذلنا على هام الأفاضل

سكتنا مليّا. وقلت:

- ثمّة جديد؟

- لا شيء. ترد الأوامر بجلبي فيتجاهلها أمنيو الجهة.

- إلى متى؟

- لا أدري. الذين يتسابقون اليوم من سفارة إلى أخرى ويعزفون

في أحزابهم جميع الأنغام، يهيّجون بها كل من هبّ ودبّ على الذين خدموا الدولة والرئيس دون أيّ تمييز، أعرف معظمهم. أعرف عنهم أكثر ممّا يعتقدون أنني أعرف. أكثرهم، عدا بعض الحالمين السذّج، أتفه من قاع حذاء مثقوب. يقيني، وهو ما مكّنت منه الخبرة ومتابعة التطوّرات، أن البلاد غرقت في مستنقع نتن لن تخرج منه، إذا قدّر لها أن تخرج، إلا بعد عقود كثيرة. لا أهليّة إطلاقا للمتصرّفين الآن في مستقبلها ولا كفاءة. هل عثرت فيهم على عارف بالدولة وآلياتها؟ أفضلهم كان مهرّجا بتنظيم سري من التنظيمات أو موظّفا تافها بمؤسسة من المؤسّسات أو محاميا فاسدا أو مشاغبا أو طبيبا فاشلا. ضحالة في التفكير السياسي وخرق في الممارسة وأحقاد دفينة وثارات ممقوتة. لـمَ لم يستعملوا الكفاءات الجاهزة. حتى الغبيّ الذي يعثر على لقية يستعمل ثمينها. وَبْشٌ ذكيّ أنجع من جاهل أحمق».

خيّم علينا صمت المقهورين. قال:

- وأنت؟

- أفكر في التفريط في المؤسّسة. بدأت أسعى إلى هذا الحلّ. كنت كافرا بالعهد البائد. صار الذي يجري يصدمني يوميا بما لا وصف له من القبائح السريالية. هل سأنتظر إلى الوصول إلى التأسف على عهد ذقت فيه الويلات؟ الأفضل أن أنفض يديّ من كل شيء.

- قد سبقك إليها سالم منذ زمان.

عاد الصمت إلى التخييم. تردّدتُ قليلا وقلت:

- وصلني كرّاس استغربتُه.

- لعلّه الذي وصلني. جاءني به ابن حارس عمارة نهج إنجلترا بعد الدفن بيومين. تسلّمته من يده.

- جاءني به في اليوم الثالث.

- النسخة التي وصلتني أصليّة.

- التي وصلتني أصلية أيضا.

- أيكون قد كتب بخطّه نسختين؟ كتب لي في الصفحة الأولى: «انتزعتُها من مذكرات داومتُ على تدوينها منذ كنّا بالكوليج. سأتلفها جميعا بعد قليل. بعضٌ ممّا كنتَ تخفي حصلتُ عليه من صورة من ملفّك بالداخلية. لديهم ملفّ آخر في مصلحة أخرى».

- من أين لسالم الوصول إلى ملفّات بالداخليّة والمصالح الأخرى، والحال أنّك الأقرب إليها؟

لم يجب الصادق. طاشت عيناه، وكأنّ فيهما بريقا ساخرا مرّا. تردّدت وبي حيرة وشكّ غامض، ثمّ سألته:

- ما الذي ستصنع بنسختك؟

- أقرؤها مرّة أخيرة وأتلفها. أنا مطلوب. لا أرضى لها أن تقع في بعض الأيدي.

- كتب لي كلاما آخر. قال: «ما كنّا، يا عزيزي حمده، سوى مشاريع معدّة سلفا للتدمير. هل تتذكّر مشاركتنا في سباق العدو الريفي عندما كنّا بمعهدنا؟ أعتقد أننا قد ظللنا نعدو بلا خطّ للوصول. أودّعك محمّلا بكثير من الحسرات.»

عانق كلاهما الآخر. قال الصادق:

- وداعا لا لقاء بعده. إذا متَّ قبلي لن أحضر دفنك. إذا متُّ قبلك أرجو ألا تأتي.

- أعاهدك على ذلك. لمن سنتّجه بعزائنا؟